الفصل الرابع

الشركة القاتلة

[انجُ سَعْد . . .
فقد هلَكَ سَعيد] ! !

استقر الأمر لمعاوية بالشام حاكماً للمسلمين ، بعد خدعة التحكيم فى « صِفِّين » ، وبعد استشهاد الإمام على ، على يد أحد الخوارج الذين أضاعت الفتنة صوابهم . . ثم بعد الصلح الذى عقده معه « الحسن بن على » ليحفظ به دماء المسلمين .

استقر له الأمر ، فراح يضع فى دهاء وصبر ، أساس دولة أموية طويلة العمر ، ممتدة على الزمان .

ولسنا هنا بصدد تصويبِ أو إدانةِ موقف « معاوية » فى نزاعه مع « الإمام » . فقد فصلنا ذلك فى مُؤلَّفاتنا – « فى رحاب عَلِيّ » ، و « وَداعاً . عثمان » ، و « أبناء الرسول فى كربلاء » . . .

لكننا نكتفى هنا ، كمدخل للموضوع ، بِرَفْضِ ودَحْض الموقف الذى وقفه « معاوية » باستخلاف ولده يزيد وأخذه البيعة له . .

هذا « اليزيد » الذى هدم بالانحلال والقسوة ما بناه أبوه بالدهاء والحلم ، والذى سَنّ للدولة الأموية على طول عهدها شريعة الغاب التى

سارت عليها وقامت بها . .

ومن عجبٍ أن هذا الذى توسَّل به « معاوية » لاستبقاء الملك فى بيت أبى سفيان . . توسَّل به القدَرُ فى الوقت نفسه لحرمان هذا البيت من الخلافة والملك إلى الأبد ، بعد أربع سنوات لا غير من استخلاف يزيد . . ! ! !

فقد مات « يزيد » بعد أعوام أربعة قضاها فى المُلك عابثاً جباراً . . ! !

وفى مرض موته خَلَع المُلك على ولده « معاوية الثانى » حرصاً منه على أن تظل راية الخلافة خفاقة فوق بيت أبى سفيان ! !

لكن القدَر العظيم كان يُعِدّ مفاجأة أذهلت الدنيا ولا تَزال . .

ذلك أن « معاوية الثانى » ذلك الشاب التقىّ الورع ، جمع الناس فى يوم مشهود ، ونهض فيهم خطيباً ، فقال :

« إن جَدّى معاوية نازَع الأمرَ أهلَه ومَن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله ، وسابِقَتِه فى الإسلام ، وهو على بن أبى طالب . . ! !

« ثم تقلَّد أبى — يزيد — الأمر من بعده ، فكان غيرَ أهلٍ له . . ركب هواه وأخلَفه الأمل . . ! !

« وإن من أعظم الأمور علينا ، علمنا بسوء مُنْقَلَبِه وقد قتل عِتْرَةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم ، وخرَّب الكعبة . . ! !

« وما أنا بالمتقلد أمرَكم ، ولا المتحمِّل تبعاتِكم . . فاختاروا لأنفسكم » . . ! ! !

وعكَف الشاب الصالح فى داره رافضاً الخلافة حتى لقى ربه راضيًا مَرْضِيًّا . . .

وهكذا ، لم يُحرَم بيت أبى سفيان آماله فى استبقاء الملك فحسب . .

بل تلقّى وثيقة إدانة رهيبة من أحدِ بَنية الأبرار ! !

ولقد أفضى موقف « معاوية الثانى » إلى زلزال وبيل أصاب حكم الأمويين بدوار خلع أفئدة جبّارية من أمثال عبيد الله ابن زياد ، قاتل الشهيد المجيد « الحسين بن على » رضى الله عنه . . فرأينا ذلك الطاغية يهرب متنكراً فى ثياب امرأة حتى يُصرع فيما بعد قتيلا . . ! !

وتمزقت الدولة تمزقاً وضعها على شفَا الهاوية ، وكاد الأمر ينتهى لـ « عبد الله بن الزبير » ليستقيم به على الجادَّة ، لولا ظروف كثيرة لا مجال لتتبُّعها هنا ، هيأت لمروان بن الحكم أن يقفز إلى مِنصَّة الحكم وسط فتن مظلمة ، ومؤامرات ماكرة . .

وهكذا ، انتقل الحكم من بيت أبى سفيان ، إلى بيتٍ أمويٍّ آخر ، هو بيت مروان . .

ومَروان هذا ، صاحب تاريخ مُريب ، مُذْ كان رئيساً لديوان الخلافة فى عهد « عثمان » رضى الله عنه . .

وإن له لَمواقف كثيرة تدمغه وتدينه . .

ولقد بدأ تجربته الشّريرة هنا — فى مصر — إذْ كان والِيها يومئذ « عبد الرحمن ابن جحدم » مناصراً لعبد الله بن الزبير .

وكانت مصر حصناً يرهبه مروان ، فجاء إليها على رأس جيش هزم به عبد الرحمن بن جحدم ، ثم دعا الناس إلى بيعته طَوْعاً وكَرْهاً .

وحين احتفظ الكثير منهم ببيعتهم السابقة لابن الزُّبَيْر ، ضرب أعناق ثمانين منهم ليرهب بهم الباقين . . ! !

وفى الوقت نفسه ، أرسل عبيد الله بن زياد إلى العراقِ ، وأمره أن يستبيح الكوفة بعد فتحها . . ! !

وغدر بخالد بن يزيد الذى كان قد أقامه وليًّا لعهده . . كما غدر بعمرو بن سعيد بن الأشدق ، الذى لولا بلاؤه العسكرى ما استقر الأمر لمروان . .

وهكذا بدأت الدولة الأموية المروانية مَنهجها فى الحكم بالقهر . . . وبالغدر . . ! !

وقبل أن يموت مروان الذى لبث فى الحكم عشرة شهور . أخذ البيعة لولده « عبد الملك » ومن بعده « عبد العزيز » . أى أنه سار على نهج معاوية ، فجعلها هِرَقْلية . كلما مات هِرَقْل ، قام هرقل ! !

وينهض عبد الملك بن مروان « بالأمر » ومن بعده ولده « الوليد » . ومن بعد الوليد « سليمان » .

وخلال هذا العهد تقوم – لا سيَّمَا فى عصر عبد الملك – إنجازات هائلة ، لا يُغمط لها قَدْر . .

لكنْ إلى جانب تلك الإنجازات ، يصيب الدولة من الفساد ، ويصيب الناس من الرعب ، ويصيب الحياة من التزييف ، ما يُشَكِّل « التركة القاتلة » التى سَيُرْزَأ بها « عمر بن عبد العزيز » حين تضع المقادير على كاهله مسئولية الخلافة .

فماذا كانت هذه التركة الرهيبة . . ؟ ؟

لقد تمثلت فى القسوة الواغِلَة التى توسَّل بها بنو مروان لتمكين سلطانهم . .

وتمثلت فى الفساد الذى غطَّى حياة الدولة وحياة الأمة معاً .

وتمثلت فى تزييف القِيم والحقائق ، مما جعل الناس يومئذ يعانون – لا فَراغاً – بل خراباً فِكريًّا رُوحيًّا مُدمِّراً . .

* * *

* فأما منهج المروانيين فى القسوة والبطش ، فيبدو واضحاً فى اصطناعهم الحجّاج ونُظَراء الحجاج .

لقد اختاره « عبد الملك » لقتال « عبد الله بن الزبير » لمجرد أنه ندَب نفسه لهذه المهمة التعسة قائلا لعبد الملك : لقد رأيتنى فى المنام أمسك بعبد الله بن الزبير ، ثم أقوم بسلخه ، فابعثنى إليه وولِّنى أمر قتاله . . ! !

وعلى الفور يبعثه عبد الملك ، ليحقق رؤياه ، وليقوم بسلخ ابن حَوَارِىِّ رسول الله . . وابن « أسماء » ذاتِ النِّطاقين . . والعابد القانِت الأوَّاب . . . ! !

ومضى الحجاج التعس إلى غايته ، فما أبْقى على حُرمة . .

نصب المنجنيق فوق جبل أبى قُبَيس ورمى به المسجد الحرام فى الشهر الحرام ، والمسلمون يؤدون شعائر الحج ومَناسِكَه . . ! !

وتلقى مكافأته من عبد الملك الذى ولاّه على مكة والمدينة واليمن ، واليمامة . ثم نقله إلى العراق ليصبَّ عليه بطشه .

ولا يكاد يضع قدمه فوق أرضه حتى يخطب فى أهله خطبته المشهورة :

« إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قِطافُها ، وإنى لَصاحِبُها . .

« ولَكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحى ، قد شمّرت عن ساقها تشميراً . .

« وقَسَماً بالله ، لآخذن الوليّ بذنب مولاه ، والمقيم بذنب الظّاعِن ، والمطيع بذنب العاصى ، حتى يلقَى الرجل أخاه ، فيقول له : انْجُ سَعْد . . فقد هلك سَعيد » ! ! !

انج سعد ، فقد هلك سعيد . . . ! !

هذا هو الوصف الصحيح للتركة القاتلة التى سيخلفها بنو مروان للرجل الصالح « عمر بن عبد العزيز » . .

القتل ، والقتل ، والقتل ، حتى تمتلىء الأرض أشلاء ودماء . . ! !

ولقد يُقال : إن هذه القسوة ، بل هذا السعار الدموى ، إنما فرضته ظروف التمرد والمقاومة المسلحة التى جُوبِهَتْ بها الدولة الأموية طوال عهدها ذاك . .

بيد أنه أصح من هذا وأصدق ، القول بأن هذا السُّعار المتوحش هو الذى أجَّجَ نار ذلك التمرد ونشَرلهَبه فى كل مكان .

ولقد شهد شاهد من أهلها بوحشية الطغيان الذى مَيَّز ذلك الميراث الرهيب . .

ذلكم هو « عبد الملك بن مروان » نفسه ، الذى راح يردد فى مرض موته كلمات الندم هذه :

« ماذا سأقول يوم المسألة عن أمر الحجاج » ؟ ؟

بل لقد هَمَّ ذات يوم أن يعزله ، وكتب إليه كتاباً مملوءاً بقوارع القول ، ومختوماً بهذه العبارة :

« . . فاعتزل عمل أمير المؤمنين ، واظعَنْ عنه باللعنة المستحقَّة ، والعقوبة الناهِكة » . . ! !

لكنه عاد فاستبقاه خوفاً على مُلكه وسلطانه . . ! !

ولم يكن سفك الدماء المظهر الوحيد لتلك القسوة . . بل كان هناك إذلال الناس بغير حق . . فالمَوالى ، وهم المسلمون عن غير العرب ، والذين يعطيهم الإسلام كل ما للمسلم من حق ، راح بنو مروان يحرمونهم حقَّهم فى بيت المال . ويُحرِّمون عليهم وظائف الدولة ، ويَفرضون عليهم الجزية بحجة أنهم دخلوا الإسلام تهرباً من دفعها . . ! !

مع أنهم قد نبغ من صفوفهم الكثرة الكاثرة من علماء الإسلام وأئمته وعُبَّاده ونُسَّاكه . . .

كما كان هناك إغراء الناس بعضهم ببعض ، وذلك أيضاً بتقسيمهم الأمةَ إلى عرب ، ومَوَال . . وإحيائهم العصبية القَبَلية التى بدأها معاوية مع المُضَرِيِّين ، والقَيسِيين ، واليمانيين . . !

• • •

. هذا عن القسوة . . .

• فأما الفساد فقد طمَر كل شيء فى الدولة ، وفى الأمة . . خربت الذمم ، فراح كل قادر على النهب ، ينتهب ما تصل إليه يداه .

وغابت الأخلاق ، فشاع الترف والانحلال . .

ووراء الفساد سار الخراب ، فأخذت الأزمات المالية بخناق الدولة ، ومُحِق إنتاجها ، حتى إن العراق وهو أغنى أقاليمها يومئذ لم يكن يُغِلّ فى عهد الحجاج أكثر من خمسة وعشرين ألف درهم ، وهو الذى كانت غلّته من قبل ، وحتى عهد معاوية تبلغ مائة وعشرين مليوناً من الدراهم . . هذا مع أن « الحجاج » لم تُعرَف عنه خيانة ولا إثراء غير مشروع ، لكنها حروبه التى كانت تُوَلِّدها قسوته ، وكذلك إسرافه فى اصطناع العملاء والإغداق عليهم بغير حساب ، والقتل الذى أجهز على الجموع العاملة ، فى الزراعة ، والتجارة ، والحِرَفِ الأخرى . . . ! !

• ولقد وَاكبَ هذه القسوة وهذا الفساد تزييف كامل لِقِيَمِ الدين وقِيم الحياة . .

وحسبنا لهذا التزييف المَهين مثلا . أن نرى منابر المساجد فى كل

الأقطار الإسلامية الرازحة تحت حكم الأمويين ، يُلعَنُ من فوقها بطل الإسلام العظيم وابنه البارّ ، وإمامه الأوّاب « على بن أبى طالب » ! !

أجل . . يُفرض على الخطباء أن يلعنوه . . ومتَى . . ؟ فى خطبة الجمعة التى يَستهلُّونها قائلين : « اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد » . . آل محمد الذين يأخذ « علىٌّ » فيهم مكان الدُّرَّة الفريدة فى العِقد المنظوم . . . ! ! ! أهناك تزييف للقِيَم ، بل إلغاء للمنطق وكرامة العقل أكثر من هذا ...؟؟! !

على أن هذا التزييف للحق وللحقيقة ، قام على أكتاف الشعر . والشعراء الذين تولَّوا كِبْره ، واحتملوا وِزره . . ولعل هذا يُفسّر لنا الموقف الذى سيتخذه منهم « عمر بن عبد العزيز » حين يحمل مسئولية الخلافة ، فلسوف نراه يطردهم عن بابه ، ويحرمهم العطاء الغَدَق الذى كانوا يتقاضونه من أموال المسلمين ثمناً لكذبهم ونفاقهم . .

لقد كان لكل بلاط شعراؤه . . ولكل وال وأمير مَادِحُوه . .

ولقد أوضحنا على صفحات سابقة ، كيف كان الشعر ثقافة العصر ولُغتَه ، وإلى أى حد كان شغف الناس وإقبالهم عليه عظيماً .

ومن ثمَّ ، فإن الخليفة الذى كان يريد أن يُجرِّع الأمة أكذوبة أو يُنْسيها حقًّا ، لم يكن يجد وسيلة لذلك أفضل من الشعر .

وإنّ رجلا كمعاوية فى دهائه العظيم ، لا يجد فى ذلك الدهاء غناء عن الشعر حين همَّ بأخذ البيعة ليزيد ، فأوحى لشاعره الخاص أن يُعدّ قصيدة لهذا الغرض ، ينشدها فى جموع الناس الذين سيحشدهم معاوية ، فى ميقات معلوم .

وفى ذلك الميقات ، يجتمع وجهاء الشام فى قصر الخليفة . وهم لا يعرفون لماذا دُعوا . . ؟ ولا لماذا اجتمعوا . . ؟ ويقف شاعر معاوية ؛ ليقول :

ألا ليت شعرى ما يقــول ابن عــــامر
ومـــروانُ ، أم ماذا يقول سعيــــد
بَنِى خُـــــلفاء الله مهــلا ، فإنمـــا
يُبَـــوِّئُهـــا الرحمن حيث يريد
إذَا المنبر الغربَى خلاَّه ربُّه فإن أمـــير المؤمنين « يزيد »

ولا يكاد يفرغ من إلقاء قصيدته ، حتى يتظاهر معاوية الداهية بأنه فوجىء بما سمع ، فيفرك كفيه ، ويقول فى مكر شديد وهو يوجه الحديث إلى شاعره .

« سننظر فيما قلت ، ونستخير الله ! ! »

* * *

وحين يحاول « عبد الملك بن مروان » تبرير مذابح وُلاته وقواده ضد الشِّيعَة ، والخوارج ، وأنصار عبد الله بن الزبير ، يستنجد بشاعره « جرير » .

لولا الخليفة ، والقرآن يقرؤه ما قام للناس أحكام ولا جُمَعُ
أنت الأمين ، أمين الله لا سَرِف فيما وليت ولا هيَّابة خَـرِع
يا آل مروانَ إن الله فضلكم فضلا عظيماً على مَن دِينُهُ البِدعُ

وهكذا تنقلب الأوضاع . كما يريد شيطان جرير . . فعبد الملك ابن مروان إمام الهدى ، وعبد الله بن الزبير [دينهُ بِدَع ! ! !] .

* * *

وحين يرث الوليد أباه فى المُلك ، يهتف بالشعر ليشد أزره ، وليُجرِّع الناسَ سلطانه ، فيتقدم « جرير » أيضاً .

إن الوليد هو الإمام المصطفى　　بالنصر هُـزَّ لواؤه والمغنم
ذو العرش قدّر أن تكون خليفة　　مُلّكتَ فاعْلُ على المنابر واسْلَمِ

وهكذا صار الوليد إماماً مصطفى ، وصارت خلافته قدَراً من الله ونعمة ورحمة ! !

* * *

وكما اعتمد الخلفاء على الشعر فى ترويج باطلهم والتمكين لأنفسهم ، راح وُلاتُهم وقادتهم يُحاكونهم ويقلدونهم .

فزياد بن أبيه يتوجه شاعره بالقصائد الكثيرة ، حيث يقول فى بعضها :

تقاسَمتِ الرجال به هــواها　　فما تُخْفى ضَغائنَها الصدور
فلمـا قام سيف الله فيهم　　« زياد » ، قام أبلـج مستنير

والحجاج ، هل ينسى نصيبه الأوفى فى هذه الولائم الباذخة الكاذبة ؟؟.

إنه يدرك أن جرائمه تتعاظم كل دِثار يُغطيها ويُخفيها . . هنالك يلجأ إلى بَطلي الثالوث الأموى . جرير ، والفرزدق . .

[فهذا جرير يُجرِّع الناس قوله :

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقّنـوا　　ماضى البصيرة واضح المنهاج

وينافسه الفرزدق الذى يكتشف للحجاج من المناقب مالا يعرفه الحجاج عن نفسه ، ولا يُصدقه . . ! !

ولم أرَ كالحجاج عوناً على التُّقى　　ولا طالبـــاً يوماً طريدة نابل
بسيف به لله يضرب من عصى　　على قِصر الأعنـاق فوق الكواهل

وتتفتح شهية الحجاج . فلا يشبعه زيف الفرزدق وجرير ، فيهتف بأعشى همدان الذى يتقدم بدوره ليجعل منه قديساً ومُنقذاً . . ! !

أبى الله إلا أن يتمم نـــوره ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا
ويـــنزل ذلا بالعـــراق وأهـــله لِمَا نقضوا العهد الوثيق المؤكَّدا
فقتـــلاهمو قتلىَ ضـــلال وفتنة وحَيُّهمـــو أمسى ذليلا مُطرَّدا

* * *

هكذا استُخدم الشعر أسوأ استخدام لتزييف الصدق والخير ولطمس الحقيقة فى وجدان الناس ووعيهم ، ولإثارة البلبلة فى خواطرهم ، وتوهين علاقاتهم بالقيم والأخلاق .

فماذا يربط الناس بالقيم بعد . . حين يرون قواد الوليد بن عبد الملك . يملأون الأرض دماً وعذاباً ، ثم تتردد فى المحافل قصيدة شاعره « عدى ابن الرقاع » :

صـــلى الذى الصـــلوات الطيبـــاتُ له
والمؤمنـــون إذا ما جمَّعـــوا الجُمَعـــا
إن الوليـــد أمـــير المـــؤمنين له
مُلْكٌ عليه أعـــان الله فارتفعـــا

وماذا يربط الناسَ بالقيم حين يرون خليفتهم – عبد الملك بن مروان – يصطفى لنفسه الأخطل ، وهو يذكُر هجاءه المُقذع السافل للأنصار الذين بَوَّأهم القرآن والرسول مكاناً عليًّا . . ؟؟

لقد فقد الناس إيمانهم بأشياء كثيرة ، ووقعوا فى تيه مظلم بين ما يبصرون وما يسمعون ، وتحطمت أعصابهم تحت وطأة الكذب ، والزيف ، والبهتان .

لقد رأوا الأبرار يُذبَّحون ويُقتَّلون والسِّفلة يرتفعون ! !

وتاهَتْ فى الزحام أصوات القِلَّة المؤمنة الورِعة – أمثال « الحسن البصرى » وإخوانه ؛ ففقدت العقيدة سلطانها ، وعاد الإسلام غريباً ؛ أو كالغريب . . ! !

وكما كان « الحُنَفاء » فى الجاهلية يُقلِّبون وجوههم فى السماء ويَهيمون بين الجبال باحثين عن النبى المنتظر . يخرجهم من الظلمات إلى النور – راح الحُنَفاء ؛ والمظلومون ؛ والمقهورون فى ذلك العهد الأموى يتطلعون إلى السماء فى انتظار النجم الذى يُجدد الله به دينه . . والذى يردُّ للخلافة كرامتها وَقدرَها ، ويضع عن الناس إصْرَهُم ، والأغلال التى كانت عليهم . .

صحيح أن التركة قاتلة ؛ والميراث رهيب ؛ ولكن عونَ الله واصطفاءه كافيان لجعل العُسْر يُسراً . . .

* * *

لقد كان الأمر بحاجة إلى معجزة . .

ويَمينُ الله مَلْآى بالمعجزات . .

أفما آن للمتعَبين أن يظفروا منها بواحدة..؟؟

بلى ؛ آن . .

وإن رحمة الله لَواسعة . .

وإن عطاءه لجَزيل . .